من مـــاضى مصر

بين فرنسا وانجلترا

للأستاذ محمد توحيد السلحدار بك

إن ما يحدث فى الشرقين الأوسط والأدنى من الحادثات ، ويقع فيهما من تولية أو عزل للحكام والحكومات ، ويجرى من السياسات ، كل أولئك أمور يعتقد أناس كثيرون أنها جميعاً من تصرف الشرقيين وحدهم ، وأنها لا أثر فيها لنفوذ غيرهم أو لدس أو سياسة من سواهم ؛ لكنها أمور لا يستقل الشرقيون دائماً بالرأى فيها منذ ضعفت الدول الشرقية أو تخلفت ، بل يغلب أن تسببها وتلعب بها أيد صُنع أجنبية ظاهرة أحياناً وتارة خفية

وهذا مقال وجيز جاء بمثال أو أمثلة فى موضوعه ، فليس يزعم أنه يبين جميع ما وقع لمصر مع فرنسا وانجلترا من جراء تعاديهما ، وطمعهما وتنافسهما الاستعمارى ؛ وإنما غرضه الإشارة الخفيفة إلى أثر ذلك التعادى والطمع والتنافس فى بعض حوادث هذا القطر المتصل بالشرق الأدنى ، والمنسوب إلى البلاد العربية بخليط فى دم أهله ، وبلغتهم وتالد ثقافتهم .

* * *

طال العداء بين فرنسا وانجلترا دهراً تحاربتا فيه حرباً عواناً ، وخصوصاً لعهد حكومات الثورة الفرنسية الكبرى وامبراطورية نابليون ، بسبب المبادئ الثورية وأعمال أصحابها ، والسيادة الدولية والبحرية ، والتجارة والاستعمار . وقد ظلت انجلترا فى تلك الأيام تؤلب الدول الأوربية على عدوتها اللدود ؛ ودخلت الحرب فى الحلف الدولى الأول على فرنسا بعد أن أعدمت لويس السادس عشر سنة ١٧٩٣ ؛ ولم تكف انجلترا بعد انحلاله ، بل بقيت تحارب ، وألّبت الحلف الثانى الذى تحطم ، ثم انتهت حربه سنة ١٨٠٢ بمعاهدة أميان Amiens بينها وبين فرنسا .

فكانت انجلترا فى حرب مستمرة مع فرنسا يوم نزلت حملة بونابرت بأبى قير عام ١٧٩٨ ، ويوم أبحر عائداً إلى فرنسا ، ثم تبعه الجنرال بليار Belliard بقسم من الحملة فى ٧ من أغسطس عام ١٨٠١ ، فتبعهما الجنرال منو Menou فى الشهر التالى بالقسم الباقى . وجاءت معاهدة اميان بعد ذلك بنحو نصف عام .

وكانت مصر على الدوام محسدة الدول التى سادت العالم القديم : لأنها كانت مركزه الجغرافى ، ولأنها تمكن من السيادة على البحر المتوسط . ومفتاح هذه السيادة هو على الأصح تونس لوقوعها فى منتصف البحر وإشرافها على شقّيه الشرقى والغربى ، وعلى صقلية ومضيق مسّينا الفاصلين بينهما . بيد أن مصر أيضاً مشرفة على البحر المتوسط ومشرفة مع ذلك على البحر الأحمر ، وهى منفذ إلى الهند ووصلة بين أفريقية وآسية ، ومجاز إلى طرقها البرية . وقد اتجه نظر بونابرت إلى مصر منذ كان يحارب فى إيطاليا حيث انتصر وعد انتصاره طالع سعده ، ومنها كتب إلى تالّران Talleyrand سنة ١٧٩٧ : « لن نلبث مليًّا حتى نُحِسّ أنه ليس بد من أن نمتلك مصر لتحطيم انجلترا » . ولما عهدت إليه حكومته فى الاستعداد لغزو الإنجليز شرع يستعد ؛ غير أنه وضع مشروعاً للاستيلاء على مصر ، وشرح لحكومته ما تجنيه فرنسا من الثمرات إذا هى استبدلته بغزو انجلترا فوكلت إليه قيادة الحملة وفتح القطر .

وملخص الأسباب التى شرحها بونابرت فى إيثار مشروعه أن مصر أخصب أرض وثروتها الزراعية والحيوانية عظيمة ؛ وإنها كانت هُرْى رومة وهى يومئذ هرى القسطنطينية ، ومجمع القوافل الأفريقية والآسيوية ، ومحل تبادل المتاجر الشرقية والأوربية ؛ فإذا قامت فيها إدارة فرنسية خمسين عاماً يزيد عدد سكانها زيادة كبيرة ، وتصبح سوقاً ومصرفاً لمصنوعات فرنسا ؛ وإن حلول الفرنسيين بمصر يضر انجلترا ، ويمكنهم من السيادة على البحر المتوسط فيوطد الامبراطورية العثمانية ؛ وإذا كان الانهيار مقدّراً عليها أخذت فرنسا أحسن حصة من سلَبها ؛ فإذا استعمرت فرنسا مصر ، أو جعلتها مستودَعاً للمتاجر أو موئباً تنقض منه على مؤسسات الإنجليز فى الهند ، كان لها أن تستيقن بأنها سترد التجارة الكبرى إلى طرقها الطبيعية فتصل إلى الثغور الفرنسية ، لأن فرنسا أحسن الدول الغربية الكبيرة موقعاً بالنسبة إلى مصر

* * *

نزلت الحملة الفرنسية بإسكندرية فى أول يولية عام ١٧٩٨ ،

وأعلن الباب العالى الحرب على فرنسا فى ٤ من سبتمبر من العام نفسه ، وأخذ يعبئ جيشين أحدهما فى سورية ، والثانى فى رودس لطرد الحملة . فرأى بونابرت أن نزول جيش رودس من البحر لا يتيسر إلا فى الصيف ، فآثر أن يفاجئ الجيش البرى قبل أن يتم احتشاده ليشتته فى سورية ويفتحها كما فتح مصر؛ ومتى يقهر الترك ويجمّع محاربين فى صفه بالتجنيد من المسيحيين المنتشرين فى تلك البلاد ، ومن الدروز وغيرهم تمتد الحركة إلى سائر العرب ويتسهل له إصلاح العلاقات بين فرنسا والباب العالى ، ثم يجتاز الصحراء زاحفاً إلى الهند . لكنه رجع إلى مصر مضطراً بسبب صبر عكا على حصاره وتفشى الطاعون فى عسكره وغير ذلك .

* * *

وجلت الحملة الفرنسية عن مصر ، لكن بونابرت المستمد مجده وفرنسا التى اعتزت به ، فرنسا التى ما فتئت تدافع عن مصالحها فى الشرق لم ييأسا من إمكان فتح هذا القطر ثانية ، بل أرادا العمل على إحياء النفوذ الفرنسى فيه ريثما تتاح فرصة الاستيلاء عليه.

فى محفوظات وزارة الخارجية البريطانية وثيقتان[1]: إحداهما مذكرة بمشروع لاستقلال مصر منسوب إلى المعلم يعقوب الذى ورد ذكره فى تاريخ الجبرتى — وليس فى كلام المؤرخ إشارة ما إلى أنه عرف شيئاً يتعلق بهذا المشروع ؛ والوثيقة الثانية كتاب من قائد سفينة حربية انجليزية أرسل معه المذكرة إلى حكومته عقيب نقله يعقوب من مصر . ولهاتين الوثيقتين علاقة بعمل فرنسا على إحياء نفوذها فى مصر .

فقد وجد رؤساء حملة بونابرت أن المعلم يعقوب رجل حرب وإدارة على ذكاء ومكر ، فألحقوه بجيش الجنرال دُزِه Desaice مديراً للتموين ، فأثبت إخلاصه لهم وشجاعته . وبعد هزيمة المماليك فى الصعيد رجع فى أسيوط إلى عيشة الثراء بجوار قائده ، وعاشره هو وأركان الحرب من ضباطه وبعض أعضاء اللجنة العلمية الفرنسية ، وكانت المحادثات بندىّ القائد شائقة وسامية المعانى فى أكثر الأحيان . فلا غرو من أن تكون أرسخت الأفكار الجديدة فى أعماق ذهن المعلم . ثم عهد إليه كليبر Kleber فى تنظيم المالية المصرية ؛ ثم جعله رئيساً لفرقة عسكرية قبطية ؛ ورقاه خلف كليبر فى القيادة العامة إلى رتبة اللواء (جنرال) وعينه مساعداً للجنرال بليار فى دفع الجيوش الانجليزية والتركية عن القاهرة ، فعد هو وفرقته القبطية — عند استسلام العاصمة فى ١٧ من يونية عام ١٨٠١ — من الجند الموكول أمرهم إلى بليار وأبحر مع هذا القسم من جيش الحملة إلى فرنسا على تلك السفينة الحربية الانجليزية .

قال الجنرال يعقوب لقائد السفينة ، فى حديث لم يحضره سوى رجل من أصل فرنسى اسمه لسكرى Lascaris جاء من مالطة مع الحملة التى استولت عليها فى الطريق إلى مصر: إنه يُسِرّ مشروعا لاستقلال مصر يريد من القائد أن يبلغه عنه سراً إلى الحكومة البريطانية . وخلاصته أن مصر إذا استقلت فإنما تكون فى حكم الخاضعة لانجلترا سيدة البحار ، ولن تكون أبداً إلا دولة زراعية غنية بأرضها الخصبة وبتجارة افريقية الوسطى ؛ وهذه الفوائد تغنى الأمة التى لها دائماً أعظم مصلحة فى تجارة مصر وبحارها ، بسبب الهند ؛ وهذا الاستقلال لا يكون انقلاباً أحدثه نور العقل أو قلق الخواطر بمبادئ فلسفية متناقضة ، بل يكون تغيراً سببه عمل قوة قاهرة فى حال أناس هادئين جهلاء ، لا يعرفون على التقريب سوى المنفعة والخوف ؛ فلا يكون فى استطاعة المصريين أن يحموا استقلالهم من الأوربيين قبل زمن مديد ، حين تنتظم القوة الأهلية وتصبح مهيبة ؛ أما حمايته من الترك أو المماليك فإن الدول الأوربية تستطيع أن تحرمهم كل اعتداء على مصر ، ويمكن أن يستأجر المصريون فرقة أجنبية مساعدة تجمع إثنى عشر ألف رجل أو خمسة عشر ألفاً ، فتكون نواة الجيش المصرى وتكفى لإيقاف الترك فى الصحراء وإبادة المماليك داخل مصر ؛ ومصر منقسمة طوائف وشيعاً يسهل توجيهها إلى الاختلاف لتتوازن ؛ — وهو ومن معه من الأقباط وفد متصل بها جميعاً ، مفوض إليه من وجهاء الإخوان الأحرار أن يفاوض الدول فى الاستقلال (ولو فوضه أحد فى شىء من نحو ذلك لما خفى جلة الأمر على مثل الجبرتى) ؛ وغرضه أن يفاوض بطريقة تجعل فرنسا هى البادئة بطرح المشروع على انجلترا إذا أيقنت هذه الدولة بفوائده السياسية فعزمت على تأييده عند عودة السلام العام إلى أوربا فلا يتعرض الوفد لرفض مشروعه بسبب التنافر بين هاتين الدولتين الأوربيتين ؛

(١) وزارة الخارجية ٧٨ ، مجلد ٣٨ (F. O. 78, vol. 38) .

أو حذر أن يكون حيلة من الجمهورية الفرنسية .

لم يكن الدين حائلا بين الفرنسيين والقبط ولم يكن بد من أن يحدث ضم يعقوب إلى الجيش الفرنسي ، فراب ثلاثة أعوام ، آثاراً عميقة فى نفسه . فكان له أن يتوقع المكافأة الثمينة من بونابرت ، ولاسيما بعد إذ أصبح القنصل الأول فى حكومة القنصلية وهو الذى لم يكن ليغفل عن الجزاء السخى على مثل ارتياح المعلم إلى خدمة الفرنسيين فى جميع الأحوال ، واستسلامه لإرادتهم كل الاستسلام حتى جعلوه جنرالا فرنسياً . غير أن المعلم مات على السفينة الانجليزية عقيب الإفضاء بسره ، فكتب لسكرى المشار إليه آنفاً مذكرة بالمشروع هى التى أرسلها قائد السفينة مع كتابه إلى الحكومة الانجليزية . وكان يعقوب قبيل موته قد أبدى رغبته فى أن يدفن بجانب (دزه) حباً فيه ، فلم تلق جثته فى البحر بل حفظت فى برميل روم Rhum إلى أن دفنت فى مرسيليا.

وواضح من نص الوثيقتين برمته ، ومن سيرة صاحب المشروع فى زمانه ومكانه ، أن فكرة هذا الاستقلال وليدة السياسة العليا ، وأن المعلم يعقوب تبناها تحت رعاية الحملة الفرنسية . ولو امتد بالجنرال يعقوب زمنه لأيدت فرنسا مشروع هذا القبطى الوجيه الثرى ، عند عقد معاهدة اميان ، ليخدم مصلحتها بنفوذه فى مصر إذ كان أحد رؤساء طائفته وقد صيّروه شخصية كبيرة الشأن . لكنه مات فلم يبق فى الفرقة القبطية من يصلح للحلول محله والمفاوضة فى مشروعه .

* * *

لما عاد بونابرت من مصر إلى فرنسا وتولى رياسة الحكومة القنصلية أرسل ماتيو ده لسبس Mathieu قنصلا عاما إلى مصر ، وذلك فى سنة ١٨٠٤ من أيام القلق التى كان جلاء الجيش الفرنسى عن القطر تركه فيها لنفوذ المماليك والفوضى . وكان من شأن المهمة الحقيقية المبينة لماتيو أن تعرضه للمخاطر فى بهرة هذه الفوضى ، إذ كانت المهمة هى إعادة النفوذ الفرنسى إلى حاله السابقة ، وقد أداها بنجاح باهر : فإن البيانات والأوامر السرية التى أصدرها إليه تالران المشهور ، وزير الخارجية الفرنسية يومئذ ، أوجبت عليه أن يبحث فى الجيش التركى الذى حارب الفرنسيين عن رجل مقدام ذى كفاية للحلول محل المماليك ؛ فاهتدى ماتيو بفراسة ذات بصيرة إلى محمد على (المغفور له محمد على باشا الكبير) ، وفاز بصداقته ، وساعده مساعدة فعالة فى سبيل علوه ؛ فلم يلبث محمد على أن أصبح سيد البلاد وجعل المصريين ينادون به والياً على مصر ، ثم أباد المماليك — كما كان يحدث لو نفذ مشروع يعقوب .

ومشهور أن فرنسا أيدت المساعى التى نال بها محمد على فرمان الولاية عام ١٨٠٥ ؛ وقد جاءه بعد ذلك فرمان بنقله والياً على سلانيك ، لأن الحكومة البريطانية طلبت من الباب العالى أن يعيد السلطة إلى المماليك ضامنة له أمانة محمد بك الألفى — الذى كان الانجليز يؤيدونه إذ وعدهم وعوداً تعرض مستقبل مصر للخطر ، منها أنه سوف ينزل لهم عن الثغور المصرية الكبيرة . ثم نجحت مساعى فرنسا فى استنبول ففاز محمد على بفرمان أعاده إلى ولاية مصر من غير أن يبارحها . لكن الانجليز لم يرقهم نجاحه الملائم لسياسة فرنسا ونفوذها ، فأرسلوا حملة على مصر : وكانت الخطة لدفع هذه الحملة الخائبة عن الاسكندرية من وضع دروفتى Drovetti قنصل فرنسا فى هذا الثغر .

* * *

استتب حكم محمد على وغزا الشام — بعد أن قهر الوهابيين بنحو خمسة عشر عاماً . وكان لويس فيليب ، ملك فرنسا ، وحكومته والرأى العام الفرنسى ، شديدى الرغبة فى أن ينفذ والى مصر ما عزم عليه وأن يوطد سلطته فى الشرق إلى أقصى حدود الإمكان ؛ فلما خرج أحمد باشا القبطان بالأسطول العثمانى من الدردنيل فى سنة ١٨٣٩ ليسلمه إليه حقداً منه على عدوه الشخصى خسرو باشا ، الصدر الأعظم ، كان أمير البحر لالند Lalande يسد بالأسطول الفرنسى منفذ المضيق إلى البحر المتوسط ، فلم يبذل أى جهد لمنع الأسطول العثمانى من الخروج تنفيذا للرغبة الدولية الأوربية مع علمه بنية أحمد باشا ، بل أعانه على خدع الانجليز والتخلص إلى مصر . لكن انجلترا خشيت عواقب النصر الذى حازه محمد على الكبير فحالت دون غرضه من توحيد الشرق العربى تحت حكمه وإن أيدته فرنسا فى المفاوضات الدولية الأوربية حتى كادت تحارب من أجله ، بل حرصا على نفوذ سياستها . وقد كتب بالمرستون ، وزير الخارجية البريطانية ، فى ٤ من مارس عام ١٨٤٠ إلى جيزو ، رئيس الوزارة الفرنسية : « أما كانت

فرنسا تسر لو رأت فى مصر وسورية دولة جديدة مستقلة تؤسس فيهما وتكاد تكون من إنشائها فتصير بالضرورة حليفتها ؟ لكم الوصاية على الجزائر ، فماذا يبقى يومئذ بينكم وبين حليفتكم مصر ؟ هاتان الدولتان المكيتان تونس وطرابلس ، وهما تكادان لا تكونان شيئا . وهكذا يصبح ساحل أفريقية كله وقسم من ساحل آسية على البحر المتوسط ، من مراكش إلى خليج الاسكندرونة ، فى قبضة يدكم وتحت نفوذكم . وهذا محال أن يكون من سبيلنا »

* * *

ضمن ماتيو بحرأته فيما ابتدأ به عمله السياسى صداقة محمد على العظيم ، ووطد فى مصر نفوذ فرنسا لمدة مديدة ، ومهد من حيث لا يدرى لابنه فرديناند طريقا قصدا إلى الاذن له فى إنشاء قناة السويس : فإن صداقة الوالى ، بعد إذ وصل إلى الحكم بمواهبه الفطرية وبتأييد من ماتيو ، كانت صداقة مضمونة بادىء بدء لفرديناند . وقد أكد الوالى أمر ذلك التأييد من الأب وهذه الصداقة للابن تأكيدا علنيا يوم كان فى سورية بين قواده وحاشيته ورأى فيه فرديناند أول مرة فقال له : « إن والدك هو الذى جعلنى ما أنا اليوم . فاذكر أنك تستطيع دائما أن تعتمد على » . ومن صداقة الوالى نشأت صداقة ابنه سعيد باشا لفرديناند ، ولولاها لكان من الممكن جدا أن يخفق فى أمر القناة . وليس شك فى أن أحوال البيئة التى ظهر فيها محمد على ، ومنطق التاريخ فى زمانه وتصرفه بسياسة أثبت حكمتها علو شأنه ، أمور تؤيد هذه الحقائق . وإذا قال التاريخ بوقوع إرشاد له وإسعاد فإن هذا القول ليس بأصغر من جلال عبقرية سمت بصاحبها إلى أوج سوددة ومجده : إذ أنقذ مصر من الفوضى وأحياها ، ومنحها ملكا واسعا وعرشا زعزع العرش العثمانى المجيد ، ولم يثبت أمامه سوى إجماع الدول العظمى .

* * *

ولما وقعت المذابح بسورية ، فى ٩ من يوليه عام ١٨٦٠ ، رفع الأمير عبد القادر الجزائرى العلم الفرنسى على داره بدمشق ، وحمى الفرنسيين هو ومن معه من أبناء الجزائر ، وأعاد النظام إلى المدينة فنحه نابليون الثالث الوشاح الأكبر لجوقة الشرف ، وعظم أمل الفرنسيين فى الأمير حتى طلبت صحفهم إنشاء امبراطورية شرقية تضم جميع السكان العرب فى سورية ولبنان والعراق وشبه جزيرة العرب . وهذا المشروع الفرنسى لم يعقبه أى إجراء فيه . لكن الإنجليز وجسوا بسبب النفوذ الذى أصبح يومئذ للأمير الجزائرى فى سورية فراقبوا أعماله ومسالكه مراقبة دقيقة ؛ وكان شأنهم مع أولاده أن شغل أولئك الإنجليز واجسهم منذ أصبح الأمير رمز المصلحة الفرنسية فى الشرق حتى اجتهدوا ، عند انتهاء الحرب العالمية الأولى ، فى الحط من سمعة أمراء الجزائر لإبعادهم عن سورية حيث كانوا عقبة أمام السياسة الإنجليزية .

* * *

وكان من المشروط فى عقد الشركة التى حفرت قناة السويس أن تملك جميع الأراضى البور التى تحييها فى جانب القناة . وكانت نية دلسبس أن يروى خمسة عشر ألف فدان من الصحراء فى جانبها الغربى بمياه ترعة من النيل ، وأن يستميل بدو سينا إلى سكناها ؛ وقصد أن يوجد الثقة فى قلوبهم بدعوته الأمير عبد القادر الجزائرى ، عام ١٨٦٧ إلى زيارة الأعمال الجارية يومئذ فى القناة ، وبتمليكه خمسمائة فدان فى بئر بلاح جنوبى نفيشه . وقد شرع الأمير بحث البدو على التجمع حول منشآت الشركة عازما على إسكان واحد من أبنائه بينهم ليعيش معهم ، ساعيا بوجاهته لإصابة الغرض . فأوجس بالرستون خيفة من هذا المشروع الذى يلائم مصلحة الشركة ويوائم السياسة الفرنسية فى آن معا : إذ رأى فيه نواة دويلة عربية تابعة لفرنسا قد تنشأ فى برزخ السويس وقد تسد ذات يوم طريق الهند . فتفادت انجلترا من هذا الخطر البعيد باستمالتها نخوة الخديو إسماعيل ، الذى كان يشغله ما حاز الأمير عبد القادر من الشهرة المتناهية ؛ فطلب الخديو من دلسبس أن يعدل عن مشروعه . ولقد بحث الإنجليز يومئذ عن سبب يمكنهم من إيجاد طريق حربى يسلكونه إلى الهند رأسا إن أغلقت دونهم قناة السويس ، وينافسها فى كل وقت ؛ فكان مشروعهم هو حفر قناة من حيفا إلى البحر الميت ومنه إلى العقبة .

ودام تنافس الفرنسيين والإنجليز مؤثرا فى شؤون مصر ، آخذا فى الضعف رويدا حتى انتهى بالإتفاق الودى عام ١٩٠٤

محمد توفيق السلحدار